كلمة الأستاذ الدكتور مروان المحاسني

رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق

أيها السيدات والسادة

لكل منا أيام يقضيها على وجه هذه البسيطة، يتشابك فيها المُفرح والمُحزن لتَحِيْكَ له نسيجًا في ذاكرته، يستحضر منه ما يَروق له أن يستذكره من مشاهد لأحداث وصورٍ، تصحبها مشاعر طبعت حياته بطابعها.

إن الحفاظ على ذكرى من طواهم أجلهم هو جزء هام من حياة المجتمعات التي تُعنى بإبراز ما أنجزه الأفراد في خدمتها، إذ إنه حسب القول المأثور: الثناءُ هو الخُلد.

إن دعوة مجمع اللغة العربية إلى تأبين فقيده الكبير الدكتور إحسان النص رحمه الله ليست مجرَّد واجب اجتماعي تقليدي تجاه مجمعيّ كانت له إسهامات متميزة في أعمال المجمع، وليست بغرض التقريظ لصديق ورفيق عزيز قد أعمل فكره في مجالات ثقافية مُتعددة.

إنها دعوة نريد أن نُعيد من خلالها تجسيدَ نفحات من أعماله، وتثبيتَها في الذاكرة، وتوضيحَ المراحل والمواقف التي كان لها تأثيرها في مسار حياته.

فلقد كان فقيدنا ممن أحبّوا الأدب منذ سنوات التعليم الثانوي، في مكتب عنبر ثم في التجهيز الأولى. وإنّ من يذكر التعليم الثانوي الحكومي، في الثلاثينيات من القرن الماضي، يعرف ذلك المستوى الرفيع الذي جعل من اللغة العربية وتراثِها الأدبي العريق محورًا لتثقيف الشباب وإرساء انتمائهم إلى ماضيهم، وذلك إضافةً إلى اطلاعهم على العلوم الحديثة المنقولة إلى العربية من قبل أساتذتهم، ضمانًا لمستقبلهم.

وكان معظم أساتذة اللغة العربية في التجهيز الأولى أعضاء في المجمع العلمي العربي، من أمثال محمد البزم وعبد القادر المبارك وسليم الجندي.

وكان إحسان النص من الشباب الذين اعتادوا قراءة كتب الأدب قديمِها وحديثِها باللغتين العربية والفرنسية، وبرز طموحه الأدبي حين أخذ يُحرر مجلة طلابية أُعجب بها أساتذته، وقد أوصله دأبه إلى أن يكون ترتيبه الأول على سورية، في الشهادة الثانوية الثانية في فرع الفلسفة عام ١٩٤٠.

وكانت أبواب دراسة الأدب مغلقةً في دمشق حينذاك، إذ كانت الجامعة السورية مقصورةً على كليتين، هما كلية للطب وكلية للحقوق، وهذا ما حَداهُ على أن ينتسب إلى كلية الحقوق سعيًا وراء شهادة جامعية تفتح أمامه مجالًا للعمل، ولو أنه لم يكن مقتنعًا بأن دراسة الحقوق يمكنها أن تشبع ميوله الأدبية.

وحين سنحت فرصةٌ لابتعاث الشباب لدراسة الآداب في جامعة القاهرة، سارع إلى المسابقة التي أجرتها وزارة المعارف، وفاز بالمرتبة الأولى بين المتقدمين، وكان قد أتم دراسته في السنة الثانية في كلية الحقوق.

ثم كانت سنوات أربع قضاها إحسان النص في القاهرة، تلميذًا لأساتذة أجلّاء من أمثال طه حسين، وأحمد أمين، وعبد الوهاب عزام، وأمين الخولي، وسهير القلماوي، وأقربهم إلى قلبه شوقي ضيف، الذي أشرف فيما بعد على رسالته للماجستير، ثم على رسالة الدكتوراه، حين عاد إلى مصر عام ١٩٥٦ لإنجاز دراسته العليا بعد انقطاع دام عشر سنوات.

لقد كان مسار حياة فقيدنا كثير التنوّع إذ إنه مارس التدريس في المدارس الثانوية، قبل إعادة إيفاده للتخصص، ثم انتقل إلى التدريس في جامعة دمشق متدرجًا حتى الأستاذية وعمادة الكلية عام ١٩٧٩.

وقد تخلّل تلك المدة إعارتُه إلى جامعة الجزائر، حين كانت الدولة هناك ترسي قواعد التعريب، وبقي فيها من عام ١٩٦٦ حتى عام ١٩٧١.

ثم أحب الدكتور إحسان النص أن يُنهي مساره في جامعة دمشق لينتقل إلى جامعة الكويت، حيث قضى عشر سنوات عاد بعدها إلى دمشق، ليرأس قسم الحضارة العربية في الموسوعة العربية عام ١٩٨٩. وكان انتخابه عضوًا عاملًا في مجمع اللغة العربية عام ١٩٧٩ إلا أنه لم يُستقبل إلا بعد عودته من الكويت، وانتخب نائبًا للرئيس عام ١٩٩٣.

قد يعجب البعضُ من هذا التنقّل بين الجامعات العربية في تلك الحِقْبة، إلا أن هذا المسار كان مألوفًا، إذ كانت جامعة دمشق منارةً تسعى الجامعات العربية المُنشأة حديثًا أن تستفيد من خبرات الأساتذة السوريين، الذين عُرفوا بجدِّيتهم وإخلاصهم ومكانتهم العلمية الرفيعة.

أيها السيدات والسادة

لقد ترك الدكتور إحسان النص رحمه الله نتاجًا فكريًا غزيرًا، يتميز بانتمائه إلى حقول معرفية مختلفة. فله عدد من الكتب، أضافها إلى كتابين يُمثّلان رسالتيه الجامعيتين، عن الخطابة في العصر الأموي، وعن العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، وتلك هي كتبٌ أدبية بحتة، عن شعراء كبار كحسّان بن ثابت، وزهير بن أبي سلمى، والعباس بن الأحنف، وكتبٌ أخرى عن الأنساب العربية والشعر الأموي.

إلا أن بحوثه المنشورة في مجلة المجمع، ثم في الموسوعة العربية وفي بعض الصحف والمجلات الثقافية، وكذلك محاضراته، تسترعي الانتباه إلى وجود ميول وتوجّهات فكرية غيرِ محصورة في المجال الأدبي البحت. فقد غلبت على موضوعات بحوثه هذه اهتمامات ثقافية متعددة، في حقول مختلفة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالتراث العربي، وتسودها نفحةٌ تاريخية.

فقد كان اهتمامه بالقبائل العربية وأنسابها مثلًا يخدم فكرة التأصيل لتاريخ تلك القبائل، لإبراز ما كانت تمثله في الكتلة الثقافية العربية حين دخلت الإسلام، فله فيها ما يزيد على عشر مقالات نشرت في مجلة المجمع، وألحقها بعدد مماثل نشر في الموسوعة العربية.

وقد تفرّعَت عن هذه الدراسات بحوثٌ طريفة تحاول تحليل بعض المؤثرات الفاعلة في الأدب العربي، في نظرةٍ إلى الشعر السياسي في عصر بني أمية، أو في الخطابة في العصر الأموي، أو في العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، وكذلك الأحلاف القبلية، وصلة القبيلة بالقبائل الأخرى، والصعلَكَة في المجتمع الجاهلي.

كما يجب أن تُسجَّل إسهاماته في موضوعات تنضوي تحت لواء علم الاجتماع، تأكيدًا لانفتاحه على الثقافة الاجتماعية العربية، التي مازالت تَحفِل بتساؤلات لم نصل إلى إجابات عنها. فقد كتب مقالةً يُحلّل فيها أحوال المرأة في المجتمع الجاهلي، ومقالة عن سجايا العرب، وأخرى عن القيم الاجتماعية في المجتمع الجاهلي، وبحثًا عن أزمة المثقف العربي في عصر العولمة.

ولكن اللافت في إنتاجه الفكري تلك النظرة الفلسفية التي ألقاها على موضوعات حياتية، قليلًا ما يهتم بها أساتذة الأدب العربي. فله مقالة بعنوان الشاعر الجاهلي في مواجهة الموت، يعرض فيها شعر كلٍّ من طرفة بن العبد وعنترة العبسي، ومقالة عن عقدة الذنب، ومقالتان إحداهما بعنوان الإنسان ذلك الوحش، والأخرى بعنوان الإنسان ذلك المتناقض، ولعل هذين المقالين كانا تجاوبًا مع كتاب ألِكسي كارِل «الإنسان ذلك المجهول» الذي قرأناه في الأربعينيات، وهو يشرح النواحي المتعددة التي تطبع حياة الإنسان، منها ما هو عضوي، ومنها ما هو نفسي، ويطرح التساؤلات عن حقائق إنسانية بدأ العلم الحديث يُسلّط عليها الأضواء.

كما شملت بحوثه نظرات دقيقةً إلى العصبية القبلية ومقوّماتها، وإلى شريعة الثأر التي كانت سائدة في الجو القبلي، كما نظر إلى العُقَد النفسية في تاريخنا العربي، إضافة إلى مقالة عن الحرب النفسية عند العرب.

وأما دراسته المَوسومَة «المنزع العقلاني في الأدب العربي» التي نُشرت في مجلة المجمع على دفعتين، فهي في نظري دراسة دقيقة يدفع فيها الدكتور النص ادّعاء من ينفون عن الأدب الجاهلي وجود نظرات عقلانية فيه، إذ إنه أكد أن مجموع الوصايا والحِكَم والمُثل تشكل نظرات عقلانية، دون أن ينفي ما يتصف به الأدب الجاهلي من انفعالية وسلوك عاطفي غامر. وأما في الأدب الإسلامي فهو يكشف وجود هذا المنزع العقلاني في مجموع ذلك الأدب القديم من أمية بن أبي الصلت، إلى كتاب الحيوان للجاحظ، إلى الامتاع والمؤانسة والهوامل والشوامل للتوحيدي، إلى رسالة الصحابة التي أرسلها ابن المقفّع إلى الخليفة المنصور، كما أنه يؤكد وجود ذلك المنزع العقلاني في شعر أبي تمام والمتنبي، وصولًا إلى أبي العلاء المعري.

إن هذه النظرة التي تسلّط الضوء على مناحٍ فكرية قلما التفت إليها المؤلفون، ولو أنها لم تغِبْ عن الأدب العربي وعن فكر المعتزلة، هي نظرةٌ توضح وجودَ تيار فكري عربي سَبَقَ ما عرفته أوربا في القرن السادس عشر من وعي إنساني اشتُهر به إراسموس Erasmus، ذلك المفكر الهولندي الذي رفض كل تعصّب ،ورَسَّخ وجود ما أطلق عليه فيما بعد اسم النزعة الإنسانية Humanisme، تلك النزعة التي أكّد الإنسان من خلالها حقيقةَ كونه مخلوقًا فَذًّا يتقدم على جميع المخلوقات برجاحة عقله، وانفتاحه على عالمه.

ويمكننا القول بأن ما ذكرناه من نظرات فلسفية إلى المجتمع وإلى التاريخ، أطلقها الدكتور إحسان النص في دراساته الأدبية، وما نراه في أسلوبه من محاكمة عقلية، كلُّها أمور ترتبط ارتباطًا مؤكدًا باختياره دراسة الفلسفة في الشهادة الثانوية الثانية.

فلقد كان لدراسة الفلسفة أثر كبير في ذلك الجيل الذي أنتمي إليه. فإن دراسةَ المنطق الصوري والتحليلي، ودراسةَ علم النفس، وتوضيحَ القيم وتعليلَها، وتحليلَ القدرات العقلية للإنسان، وتفهّمَ منطلقات المشاعر، كلّها أمورٌ كان لها تأثير كبير في نظرتنا إلى الحياة، وهذا ما جعلَنا ننفتح على العلوم النظرية والتطبيقية بنظرة جديدة، قادرة على التمييز بين السلبيات والإيجابيات، وكشف التناقضات.

وإن ما نراه في الإنتاج العلمي للدكتور إحسان النص مستقًى من لُبّ تراثنا، يؤكد أن موقفه الفلسفي يرفض القطيعة مع التراث، بل إنه بقي يبحث في عناصر التراث الأصيلة، حاملًا روحًا ناقدةً تبرز النقاط الهامة، ولا تنجرف إلى تسفيه آراء الآخرين.

ولعل محاضرةً ألقاها في مجمع اللغة العربية عن «السُخرية من الذات في أدبنا القديم» ٢٠٠٦ تؤكد ما ذكرناه عن فقيدنا، من انفتاح فكري وقدرةٍ على النقد والتحليل.

أيها السيدات والسادة

يشكر لكم مجمع اللغة العربية مشاركتكم في حفل تأبين مجمعي كبير خدم اللغة العربية في ميادين عديدة.

وكان الدكتور إحسان النص طيب النفس، سهل العِشْرة، منفتح الذهن، مالكًا للغة، وقد بقي ملازمًا لعمله في المجمع إلى حين حالت أوضاعه الصحية دون المثابرة على المشاركة في أعمال اللجان.

رحم الله فقيدنا وأسكنه فسيح جناته ... والسلام.